

محمد صلى الله عليه وسلم
سنوات المدينة :
"الدكتور وجدى الفيشاوى"



د/ أمين حسين الرباط (١)

يقع كتاب "محمد صلى الله عليه وسلم ، سنوات المدينة ، دراسة نقدية" للدكتور وجدى الفيشاوى ، أستاذ الأدب الإنجليزى والصادر عام ٢٠١١م ، وفى ٤١٨ صفحة من القطع الكبير ، فضلاً عن ثبت مراجع وإفاً وضافاً باللغتين العربية والإنجليزية .

عندما يدلف الإنسان بين دفتى هذا السفر العظيم ، والكتاب القيم يجد نفسه واقفاً مشدوهاً مشدوداً ، حائراً متبثلاً متعبداً فى حضرة سيدى رسول الله فى المدينة المنورة ، الطاهرة المعطرة بشذا خطى سيدى الهادى البشير ، متوسلاً بنور رب محمداً الذى أشرق على العالم سنأؤه وعمّ ضياؤه وأضاء بهديه قلوب عباد الرحمن .

والطريف واللافت للنظر فى الأمر هو أن الدكتور الفيشاوى يخصص ٤١٨ صفحة من البحث الأكاديمى الدقيق للسنوات الثلاث عشرة

(١) أستاذ اللسانيات بمركز اللغات والترجمة ، أكاديمية الفنون .

التي قضاها الرسول في المدينة المنورة فحسب، ولا يسع الناقد والباحث المتخصص إلا أن يُقَيِّم هذا الكتاب ويثمنه باعتباره بحثاً أكاديمياً واحداً ، رائعاً ، طويلاً ، بل إنه يبدو وكأنه سبيكة ذهبية واحدة نسيج واحد ، يُضَفَّر فيه المؤلف بين خيوط ومستويات عديدة ؛ يتلاقى فيها التاريخ (كتابة التاريخ) ، والتحليل ، والنقد الموضوعي البعيد عن الهوى ، والتأصيل ، والتحرير ، والتوثيق والتسجيل الأمين . تتلاقى كل هذه المستويات معاً في تناغم وسيلابية وإنسياب لتخرج لنا عملاً بحثياً نقدياً أكاديمياً بديعاً بمقاييس البحث العلمي الأصيل . وقد نجح الكاتب الناقد في أن يرصد وينقد ويحلل ، دون أن تجرّفة حماسة المسلم الغيور ، أو تستهويه العبارات الإنشائية الطنانة الفضفاضة الخطابية التي تعجّ بها الكتب التراثية والحديثة على حد سواء في هذا المجال وغيره من المجالات ؛ والتي لا تخدم علماً ولا تضيف جديداً إلى الحقيقة ، بل تصيب القارئ العصري بالملل والسأم والغثيان .

ولابد أن نسلط الضوء على حقيقة واضحة جلية لتزداد وضوحاً وجلاءً ، وهي أن الدكتور الفيشاوي يمتلك ناصية موضوعية وأدواته العلمية والفنية التي مكنته من أن يجمع بين حرفية الأستاذ المتمرس وبراعة الأديب المرهف . ولا غرو في هذا ، فهو أستاذ للأدب وله ما يربو على أربعة عشر عملاً أدبياً ونقدياً بالعربية والإنجليزية ، فضلاً عن أنه قضى ست سنوات كاملة ، معتزلاً الحياة ، متفرغاً مكرساً حياته ، غارقاً بين الكتب ليخرج لنا هذا الجزء الثاني ، أو بالأحرى المجلد الثاني ، عن حياة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم في المدينة المنورة . وقد سبق هذا الجزء جزء آخر عن "محمد صلى الله عليه وسلم ، سنوات مكة ، دراسة نقدية" .

محمد صلى الله عليه وسلم
سنوات المدينة : دراسة نقدية
"للدكتور وجدى الفيشاوى"

أضف إلى ذلك ، أن له كتاباً عن "المسيح" عليه السلام بعنوان "لا تصلبوا المسيح" ، وآخر عن "موسى فى الأساطير الإسرائيلية" . ومن ثم فهو يبحر فى بحار قد سبر أغوارها وألف أسرارها وميز بعلم غزير بين غثها وسمينها ، وما تحتوى عليه من الجواهر .

والكتاب الذى بين أيدينا يعد إضافة علمية فذة فى تناوله لسنوات المدينة الخصبة المغدقة العطاء ، البعيدة الأثر فى حياة سيد الخلق ، وأثرها فى بناء الأمة الإسلامية ونشر الإسلام ؛ وهو جدير بأن يحتل مكاناً مميزاً فى المكتبة العربية والمحمدية والإسلامية . والكتاب يضم ثمانية فصول تبدأ بتكوين الأمة" ، وبناء المسجد النبوى ، وغزوة بدر الكبرى "وتنتهى" بالقوة والانتشار "ثم" "الوداع والموت" . والمؤلف لا يسرد ويحكى وينقد ويُفند ويرد على الافتراءات والأباطيل وينقح ويشذب ويُصفى الحقائق فحسب بل يتصدى "للخرافات التراثية" على حد تعبيره مثل الادعاء غير الموثق الذى لا يقوم عليه دليل علمى واحد من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، القائل بأن الملائكة قد حاربت فى موقعة بدر الكبرى مع المسلمين ، ويستعرض ناقداً مُحللاً ما جاء فى كتب ابن سعد ، والطبرى والقرطبى وابن هشام ، والدكتور شوقى ضيف ، والألوسى ، والشيخ الجليل أحمد حسن الباقورى وغيرهم من الحُجج والثقات والشيوخ فى هذا الشأن . (انظر من محمد صلى الله عليه وسلم ، سنوات المدينة ، ١٩١١ ، ص ٧٢-٨٠) .

ليثبت أنهم ما نزلوا إلا بشرى وتثبيتاً للمسلمين .

ولغة الكتاب وأسلوبه له جرس خاص ، وهو شديد العلمية (فى مقابل أدبية) ، ويتسم بالدقة والموضوعية والحيادية والنزاهة الأخاذة . وهو أيضاً

واضح المعالم والوقفات والنقلات ، من رؤوس الأقلام إلى جوهر الموضوعات ؛ يتسم بالبعد عن الخيال المُجنح والخطابة والطنطنة والتمثيل البلاغي والبياني المفرط المخل ، كما هو الحال في الكثير من الكتب في هذا المجال . وعندما زعمت أن الكتاب يعتَبر إضافة علمية فذة في مجال تخصصه ، فقد كان هذا الزعم مبيناً على مقارنة علمية عقدتها بينه وبين عدد من كُتب في مجاله من أعمال علمية وكتب في السنوات الخمسين الماضية تقريباً في عُجالة . وسوف أسوق بعض الأمثلة على ذلك؛ فثمة كُتب ركزت على الرد على دعاوى المستشرقين ، فضلاً عن تناول بعض جوانب من عبقرية وعظمة محمد صلى الله عليه وسلم (انظر عباس محمود العقاد ، "عبقرية محمد" ، نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٦٢م) . وهناك طائفة أخرى غربية وعربية ، أثنت على "محمد" صلى الله عليه وسلم ونظرت إليه باعتباره نموذجاً للبطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختاروهم للوصف والتدليل على العظمة بمفهومها الواسع والشامل (انظر توماس كارليل ، "عن الأبطال" : عبادة البطل والبطولة في التاريخ ، ج.م. دنت آند حنذ ، ١٩١٠م) . وآخرون قَيَّموا محمداً (ص) من زاوية أنه واحد من أعظم مائة شخصية ظهرت في تاريخ الإنسانية ، كان لمبادئ دينه وسماته الشخصية أثراً ومتجدداً ودائماً على أمته وعلى تاريخ الإنسانية ، كلها ومثال ذلك مايكل هارت (انظر مايكل هارت ، الخالدون مائة عام أعظمهم محمد ، ترجمة أنيس منصور ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٩٨١م) . ومنهم من قصر دراسته واهتمامه على فترة وجيزة تمتد فقط لمدة عشرة في حياة محمد رسول الله لما لتلك الفترة وما وقع فيها من أحداث من أهمية من وجهة نظر المؤلف (انظر خالد محمد خالد ، "عشرة أيام في حياة الرسول" ، المقطم

محمد صلى الله عليه وسلم

سنوات المدينة : دراسة نقدية

فكر وإبداع

"الدكتور وجدى الفيشاوى"

للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٤م) . وممن أدلوا بدلوهم الأديب توفيق الحكيم بين الدلاء أيضاً ووضعوا السيرة النبوية المُستقاة من كتب التراث كما هى ، نصاً ومعنى ، على ألسنة قائلها الحقيقيين فى شكل عمل مسرحى حوارى ليس به أية إضافة أو شرح أو نقدٌ وعرض أو تحليل . (انظر توفيق الحكيم ، محمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦م) . ومن الكتاب أيضاً من رصد وسجل كل الأحداث الواردة فى كتب السيرة القديمة وكل ما استطاع نقله مما كُتب عن محمد حياته وزوجاته حسب مبلغه من العلم فى جهد مشكور ، بيد أنه لم يَنقَحْ ، ولم يناقش ، ولم ينقد ؛ وإن كان له فضل الجمع الجيد للمادة العلمية مع الافتقار إلى النهج العلمى فى البحث - الأديب فتحى العسال (انظر فتحى العسال - محمد رسول الله قرآن يمشى على الأرض ، مطبعة الحضارة العربية ، الفجالة ، القاهرة ، ١٩٨٨م) .

وكما أسلفنا فإن كتاب الدكتور وجدى الفيشاوى يغطى فحسب تلك السنوات الثلاث عشرة التى قضاها الرسول فى المدينة ، وهى لا تكاد تمثل شيئاً فى عمر الزمن ، ولكنها تمثل فتحاً وانقلاباً دينياً ودنيوياً بكل المقاييس ، والمؤلف لم يترك شاردة ولا واردة ولا حجر ولا مدر كما يقولون فى تلك الحقبة الخصبة من حياة الرسول والأمة الإسلامية وبناء الدولة الوليدة إلا وتناولها بالدراسة النقدية العلمية المنهج والأسلوب ، قاصداً فقط وجه الله والحقيقة العلمية البحتة ، شاهراً قلمه فى نزاهة الناقد المنصف ، مُشرعاً سيف النقد العلمى الأكاديمى الحق ليبتز ويقطع به الرؤوس الشائهة لسدنة وحرّاس وكنهة الدين الجهلاء والأدعياء ، والمتاجرين بدين الله الحق السمع الحنيف الذى يدعو للمحبة والسلام والوسطية دونما تنطع وتشدق وتفيهق بغیض جاهل

، غارق ومستغرق "في خواء معرفي ، وقحط علمي ، وتخلف إدراكي يسيء أكثر مما يفيد إلى الدين وإلى من وصفه الله سبحانه وتعالى قائلاً : "وإنك لعلی خلق عظیم" ، ووصفته الحميراء ، عائشة رضي الله عنها ، بأنها "قرآن يمشي على الأرض" ، و"أن خلقه القرآن" . ولقد حدد الرسول الكريم أحد أهم أهداف رسالته العظيمة قائلاً "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .

ولنتدبر قول الرسول الكريم ، الذي كان نبتة عطرة نقيّة نقيّة مباركة وسط قلوب قد قست ، وطباع قد غلظت ، وعواطف قد جّفت ، ومشاعر قد تبلدت ، وعقول قد تحجّرت وتحذّرت فصارت تعبد الأحجار ، وتطوف بالأوثان ، لنستمع إليه ، صلوات الله وسلامه عليه وهو يقول :

"إن أحبكم إليّ وأقربكم مني منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً . الموطأون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون" .

هذا بعض من كل مما جاء في هذا الكتاب البديع . ويبقى أن نقول في النهاية أن دين الإسلام ، دين محمد ، هو الدين السماوي الوحيد الذي علّم الإنسان وهدهاه إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة ، فالمسيح عليه السلام بشر بملكوت السموات ولم يعط نفس الاهتمام لملكوت الأرض، ولا لوم عليه فقد كان هذا هو جوهر رسالته . وموسى عليه السلام ركّز على ملكوت الأرض ولم يركّز كثيراً على ملكوت السماء وتلك أيضاً كانت طبيعة رسالته في زمانه ولقومه .

وسيطّلع في الأفق هلال ويغيب هلال ، ويذهب ليل ويأتي ليل وتمر الأيام وتكسر السنون ويظل نور محمد ، نبي البر والرحمة والهدى ، هادياً لخطى الإنسان المسلم في كل زمان ومكان وأن ، ولن يجف أبداً نبع الخير الدافق والمتدفق من دين الله الحق سبحانه جل وعلا علوا كبيرا .